

مفهوم النظام في مجال العلاقات الدولية

د/عبد الرحمان برفوق

قسم علم الاجتماع

كلية الآداب و العلوم الاجتماعية

جامعة محمد خيضر بسكرة

Résumé :

Le système est un concept qui occupe un lieu très important dans le domaine des relations internationales puisque le système international est l'objet des études des spécialistes.

Le présent article traite donc de découvrir l'application du concept de système dans le champ des relations internationales et comment il à passé des autres champs à celui des relations internationales.

ملخص:

يحتل مفهوم النظام مكانة هامة في مجال العلاقات الدولية ذلك أن النظام الدولي كان موضوعا لدراسات واهتمامات المتخصصين.

وتحاول المقالة الراهنة استكشاف تطبيق مفهوم النظام في ميدان العلاقات الدولية و كيف انتقل من مجالات معرفية أخرى.

لقد ظهر مفهوم النظام لأول مرة في مجالي الفلسفة و الرياضيات ثم انتقل بعد ذلك على أسس غير دقيقة إلى مجال دراسة المجتمع ابتداء من القرن التاسع عشر و مع ذلك فقد تعين الانتظار حتى منتصف القرن العشرين كي يظهر كمفهوم واضح و متماسك للنظام الاجتماعي، أما تطبيقه في مجال العلاقات الدولية فقد جاء متأخرا. و سنحاول في هذه المقالة دراسة مساهمة عالمين هما "مورتون كابلان" و "ريتشارد روزكرينس"، و لكن قبل أن ننقل إلى تحليل أفكار هذين الكاتبين نشير إلى مساهمة عالم الاجتماع "تالكوت بارسونز" في تقديم مفهوم النظام الاجتماعي بشكل أكثر وضوحا و متماسكا.

و يعتبر "بارسونز" من أشد الكتاب تحمسا لنظرية النظم في مجال الدراسات السوسيولوجية حيث أثرت دراسته على هذا الجانب في الدراسات السياسية من خلال تطويره لنظام استخدم كأداة للتحليل أطلق عليه "نظام الفعل".

و يتناول "بارسونز" نظام الفعل من خلال ثلاثة متغيرات هي : الفاعل و الظروف و موجبات الفاعل. و تشمل هذه الموجبات على بعدين هما : الموجبات الواقعية و الموجبات القيمية.

وفي هذا السياق كتب عالم الاجتماع الإسباني "كارلوس موييا" (Carlos Moya) يقول : "النظام الاجتماعي هو إحدى منظورات ثلاثة (المنظور المتبقيين هما: النظام الفردي و النظام الثقافي) الذي يمكن من خلاله أن نفهم نظام معين للفعل الاجتماعي بطريقة علمية. فالنظام الاجتماعي يتمثل في تعدد الفاعلين الذين هم في حالة تفاعل..."⁽¹⁾. و قد انتقل مفهوم النظام الاجتماعي الذي يتضمن عددا محددًا من الوظائف من مجال علم الاجتماع و علم السياسة إلى الحقل الضيق للعلاقات الدولية. و يتعلق الأمر هنا بتطبيق المدخل النسقي بمدخلاته (Inputs) و مخرجاته (Outputs) على المجتمع الدولي الذي يخضع فيه الفاعلون لمجموعة من التفاعلات.

1-مورتون كابلان: Morton Kaplan.

و يعتبر "كابلان" صاحب الجهد الأكبر بين جميع الباحثين في تحديد قواعد ونماذج للتفاعل داخل نماذجه التي وضعها للنظام الدولي. و هو بذلك أول من أدخل المعالجة النسقية على العلاقات الدولية. فهو يقول : "ننطلق في هذا الكتاب من فرضية أن

السياسة العلمية لا يمكنها أن تتطور و تنمو إلا من خلال محاولتها معالجة المواد السياسية بوصفها أنظمة للفعل. و نظام الفعل هو جملة من السلوك القابلة لوصف العلاقات الداخلية و المتغيرات فيما بينها و علاقات كل المتغيرات الفردية بمركبات (Combinaisons) من المتغيرات بخارج النظام⁽²⁾.

و يبرز الكاتب صلاحية طرحه و صحته من خلال العبارات التالية :

أولاً: "إنه يسمح بعرض مجمل المتغيرات التي تقدم حولها اقتراحات مختلفة".

ثانياً: "تسمح نظرية النظم بإدخال متغيرات مستوردة من تخصصات مختلفة".

ثالثاً: "على الباحث أن يولي عناية خاصة بكل المتغيرات البارزة و الهامة".

رابعاً و أخيراً: "تمنح هذه النظرية منهج لتحديد نقاط التشابه بين بنيات مادة و أخرى وبصفة خاصة فالنظرية تسمح بدراسة سريعة للتشابه و التباين بين أنماط من البناء قد تكون مختلفة جداً إذا ما تمت بطريقة أخرى"⁽³⁾.

و إلى جانب الامتيازات المذكورة يوحد "كابلان" النظم من حول الخصائص فهو يقول: "للنظم خصائص مشتركة فلها مجموعة من المعايير الأساسية ، و هي تشترك في بعض العناصر الداخلية (مثلاً ، أنواع الفاعلين ، قدرتهم ، عوامل الإعلام و قواعد التحويل) و لها حدود معينة. إضافة إلى ذلك يخضع توازن النظم إلى ثلاثة مبادئ هي: أولاً، أن المعايير الأساسية هي في توازن، بمعنى أن أي تغير يحدث في إحدى هذه المعايير يحدث تغيرات على معيار آخر على الأقل. ثانياً، أن أي تغير في مجمل هذه المعايير يحدث تغيراً في خصائص أخرى للنظام و العكس صحيح. ثالثاً، أن النظام هو في توازن مع محيطه فكل تغير في النظام يحدث تغيراً في المحيط و العكس صحيح"⁽⁴⁾.

و يحدد الكاتب مجموعة من القواعد لكل واحد من النظم الافتراضية التي وضعها فهو يرى أن الوحدات في هذه النظم تعمل على أساس هذه القواعد:

أ-نظام توازن القوى: و قواعده هي أنه يسعى الأطراف إلى زيادة قدراتهم، ولكنهم يتفاوضون مع بعضهم بدلاً من أن يتقاتلوا ، أن الأطراف تتقاتل بدلاً من تفويت فرصة لزيادة قدراتها، أن الأطراف يوقفون القتال بدلاً من تصفية طرف رئيسي آخر، إن الأطراف يعارضون أي تحالف أو أي طرف يسعى لاكتساب مركز يساهم أو يؤيد وجود

منظمات فوق وطنية، أن الأطراف يسمحون لطرف رئيسي مقيد أو مهزوم للعودة ثانية إلى النظام ليقوم بدور الشريك أو القبول بطرف كان يعد من القوى غير الرئيسية و إدخاله في النظام كأحد القوى الرئيسية.

ب-نظام القطبية الثنائية المرن : و يشبه في عدة جوانب النظام الدولي الذي ظهر في أعقاب الحرب العالمية الثانية. فهو نموذج يتكون من كتل كبرى مثل "الناتو" أو "حلف وارسو" وجود قوة كبرى بداخل كل كتلة كالأولايات المتحدة الأمريكية و "الاتحاد السوفيتي" (سابقا) إلى جانب وجود أطراف غير مرتبطة بالكتلتين مثل الهند و دول عدم الانحياز إضافة إلى الأطراف العالمية كالأمم المتحدة.

ج-نظام القطبية الثنائية المحكم : مع أن "كابلان" يرى أن ثمة تشابه في عدة جوانب بين هذا النظام و النظام السابق، إلا أنه يرى أنه يختلف عنه في جوانب أخرى هامة. فالأطراف المشاركة في هذا النظام أقل من سابقه و بالتالي فإن هيكل الكتل هنا يكون أكثر استقرارا من النظام السابق، أما إذا كانت الأطراف في كل كتلة غير مسلسلة هرميا من الناحية التنظيمية فإن النظام يجنح للتحويل نحو النموذج المرن ، في حين يساعد التسلسل الهرمي على استقرار هذا النموذج و تكون آليات التماسك داخل النظام ضعيفة أو أنها تكون غير موجودة. و العلاقات بين الكتل تتميز بالصعوبة أما التعاون فهو غير موجود.

د-النظام الدولي العالمي: و هذا النظام -من الناحية النظرية- يبرز نتيجة اتساع وظيفة الطرف العالمي -الأمم المتحدة مثلا- في النظام القطبي المرن، و من هنا يختلف هذا النظام عن النظم السابقة في أن له نظام سياسي يقوم بتوزيع المكافآت أو المساهمة في زيادة الشهرة أو الهيبة لكل من الدول أو الأفراد طبقا لما قاموا به من نشاطات معينة لا على أساس خصائص معينة تتوفر لديهم كالأساس العرقي، كما أن هذا النظام يحتوي على آليات تكاملية أو توحيدية تقوم بوظائف إدارية و اقتصادية و سياسية و قضائية.

هـ-النظام الهريراركي الموجه أو غير الموجه : و هو نظام قائم على أساس وظيفي لا على أساس إقليمي سياسي، فالنوع الموجه يعمل طبقا للقواعد السياسية المستخدمة بشكل عام في النظم السلطوية أو الديكتاتورية، بينما يتماشى النظام غير الموجه مع قواعد النظم الديمقراطية.

ي- نموذج الوحدة المعترضة: و تستند فكرة هذا النظام إلى القاعدة الذهبية في القانون الطبيعي عند "هوبز" و إن كان من جانبها السلبي، أي أن على الأطراف أن لا يفعلوا للآخرين ما لا يجب أن يفعله الآخرون لهم، و يحدد "كابلان" شرطا واحدا لهذا النظام وهو أن يكون لدى كل واحد من الأطراف القدرة على تدمير أي طرف آخر⁽⁵⁾.

هذه النماذج الست، التي أصبحت تقليدية في التحليل النظري للعلاقات الدولية والتي صيغت من حولها المداخل النسقية، تم توسيعها فيما بعد من طرف "كابلان" نفسه رغم أنه يحذر من أن النماذج الإضافية الثلاثة هي "نماذج مستخلصة من عالم أكثر تعقيدا":

أولا ، نظام الكتل الأربعة: و يضعنا أمام المنظور التالي: لقد تم حل الناتو[...] وأصبحت للولايات المتحدة الأمريكية مسؤولية خاصة في أمريكا اللاتينية و أقاليم من آسيا، و هي تستخدم منظمة الدول الأمريكية (O.E.A) للتدخل في أمريكا اللاتينية من أجل المحافظة على العملية الدستورية في هذه المنطقة[...]. إعادة النشاط للهيمنة الروسية داخل كتلة أوروبا الشرقية. أما الصين الشيوعية فقد انضمت إلى الأمم المتحدة. و بما أنه ليس لدى أي كتلة توجه و طموح في مراقبة العالم و بما أن الجميع يعترفون بصعوبة مراقبة الثورات داخل الأمم ، فتصبح إذن هذه القاعدة هي السائدة.

ثانيا ، نظام الكتل الغير مستقرة: و فيه تبدأ أحد الكتلتين في التفكك و لا يوجه بها تقريبا اتفاق لمراقبة التسلح: فتتسع الموجه الثالثة من الصراع فيصبح اللجوء للعنف المحلي أمرا معتادا و تتزايد حركات التحرر و الثورات الداخلية.

ثالثا و أخيرا، نظام أحادي القطبية: تصبح فيه الولايات المتحدة الأمريكية السلطة العالمية الوحيدة مع إدماج استراليا و زرلندا الجديدة و الفلبين كولايات أمريكية و حتى إسرائيل تلتحق بهذه الكتلة⁽⁶⁾.

و في الأخير يمكن القول أن أهمية دراسة "كابلان" تكمن في الطريق الذي فتحته أكثر من الهدف الذي حققته.

2-ريتشارد روزكرينس: Richard A. Rosencrance.

و في نفس الاتجاه هناك "ريتشارد روزكرينس" (Richard Rosecrance) الذي يعتمد هو الآخر مثلما فعل "كابلان" على المادة التاريخية لبناء نماذج وإثبات صحتها فيما يتعلق بالسلوك الدولي، إلا أن هناك اختلافات كبيرة بين مدخليهما. ففي الوقت الذي ينطلق فيه هذا الكاتب الأخير من منظور مجرد واستنباطي كما رأينا فإن "روزكرينس" ينطلق من حدث تاريخي ملموس في العلاقات الدولية محددا بفترة زمنية ثم يحاول بعد ذلك التمييز بين عدد من النظم الدولية المتتالية على أساس النمط الدبلوماسي السائد في كل فترة⁽⁷⁾.

و قد حدد الكاتب هدفا يتمثل في التعرف على مختلف النظم الدولية التي عرفتها أوروبا الغربية في الفترة ما بين 1740-1960 ليشرع بعد ذلك في تحليل نسقي يقوم على تحديد العناصر التي ساهمت في استقرار أو عدم استقرار كل نظام دولي. فهو يميز بين تسعة نظم دولية متباينة، على أساس التغيرات الهامة في الوسائل الدبلوماسية و الأهداف. هذه النظم هي : I-القرن الثامن عشر 1740-1789، II-السلطة الثورية 1789-1814، III-الوفاق الأوربي 1414-1822، VI-الوفاق التصير 1822-1848، V-الوفاق المتعثر 1848-1871، VI-الوفاق البسمارك 1871-1890، VII-القومية الإمبريالية 1890-1918، VIII-النظام العسكري الشمولي 1918-1945، IX- ثم فترة ما بعد الحرب 1945-1960.

و في دراسته لشروط الاستقرار الدولي، في كل نظام فإنه ينتقي العناصر الرئيسية الضرورية للدراسة التاريخية المقارنة و هي : مدخل الاضطراب ، الآلية المنظمة التي تواجه الاضطراب لضبطه ، القيود البيئية التي تؤثر على النتائج الممكنة ثم النتائج نفسها.

أما مدخلات الاضطراب فتشمل بعض العوامل مثل: الإيديولوجيات الخطر الداخلي، التفاوت في الموارد بين الدول، المصالح المتعرضة بين الدول. أما الآلية فتتكون من عناصر مثل الوفاق الأوربي لسنة 1815 ، الأمم المتحدة اتفاقيات غير رسمية، الدول

الأوربية الكبرى في القرن الثامن عشر. أما العنصر الثالث المتمثل في القيود البيئية التي تحدد النتائج المتوقعة أو الممكنة. أما معيار الحكم على النظام فهو التوازن أو عدم التوازن و مؤشر ذلك هو الإجابة عن التساؤل التالي: أيهما أقوى الآلية المنظمة أم الاضطراب؟

وعلى أساس مجموعة العناصر الرئيسية هذه يقوم "روزكرينس" بتطوير واختبار أربعة عوامل رئيسية لكل من النظم التسعة و هي : توجهات النخبة الحاكمة درجة تحكم النخبة، الموارد المتاحة للنخب و قدرة على احتواء الاضطرابات و المحافظة على التوازن⁽⁸⁾.

و قد قادته نتائج هذا التحليل إلى التأكيد بأنه من الممكن تطوير النماذج الرئيسية للنظام الدولي.

النموذج الأول هو الاستقرار ، و يستند هذا النموذج إلى مقارنة النظم التالية : I-III-VI-IX- في هذا النظام كان الاضطراب في حده الأدنى و كانت الآلية المنظمة قادرة على مراقبة الوضع. كما كانت النخبة الحاكمة راضية بالوضع القائم. أما الإيديولوجيا فلم يكن لها دور هام، أما المطامح الإقليمية -إن وجدت- فتحول إما إلى المناطق المستقرة أو أنها تكون في حدود لا تؤثر على المصالح الحيوية للدول الأخرى . و بالتالي فنظام القطبية التعددية هو الذي كان سائدا في هذا النموذج.

أما النموذج الثاني فهو غير مستقر و يستند هذا النموذج إلى مقارنة النظم المتبقية و هي: II-V-VII-VIII- في هذا النظام كان عامل الاضطراب أعلى نسبيا من قدرة الآلية المنظمة على معالجة الاضطراب. و كانت النخب الحاكمة غير راضية عن الوضع القائم و يملؤها شعور بعدم الأمن. أما الإيديولوجيات فقد كان لها دور هام إذا كانت تستخدمها النخب الحاكمة لتعزيز مواضعها.

واستنتج "روزكرينس" أن من غير الممكن التنبؤ بالأحداث المستقبلية استنادا إلى عدد محدود من المتغيرات كما أن هذه المتغيرات التي أولاهها اهتماما في دراسته قد لا تكون على درجة كبيرة من الأهمية لتحديد مستقبل النظام الدولي. و نتیجته الرئيسية هي

أن ثمة ارتباطا بين عدم الاستقرار الدولي و عدم شعور النخب بالاستقرار على الصعيد المحلي⁽⁹⁾.

وقد أكمل الكاتب، فيما بعد تصوره بدراسة ديناميكية الحرب و السلام من منظور نسقي كذلك على ضوء مختلف النظم التاريخية و النظام الدولي الحالي و نماذج أنظمة دولية مستقبلية⁽¹⁰⁾.

والمسألة الأولى التي يطرحها "روزكرينس" للنقاش هي عوامل الحرب و السلام و في هذا السياق فإنه يحدد ثلاث وسائل رئيسية يمكن من خلالها مراقبة الصراع أو احتوائه و هي: النظم، الأهداف و التقنيات.

وتشير النظم إلى العلاقات بين الدول. فالنظم الدولية تساعد في تحديد النتائج السياسية العالمية بواسطة أربع طرق مختلفة هي: أولا أن تفاعل سياسات الدول بداخل النظام الدولي يمكن أن يكون قادرا على تنظيم السلوك الوطني الحربي. ثانيا أن النظام الدولي يساعد على المحافظة على الاستقرار و السلام و هو بذلك يقدم محيطا ملائما للخبرات و الموارد التي تحتاجها الدول، ثالثا أن بنية النظام ذاتها أي أن النظام الذي تترتب و تتوزع من خلاله الدول يمكن أن يحدد السلام أو الحرب، رابعا و أخيرا نجاح النظام في المحافظة على السلام هو متأثر بنظام الترابط.⁽¹¹⁾

و أهداف الدول نفسها هي محددة بصفة أساسية من داخل منظور الدولة، رغم أنه يمكن الأخذ بعين الاعتبار أنظمة التفاعل. فالأهداف هي تعبير أساسي عن الحياة السياسية الداخلية للدولة، فهي تعبير عن طموحاتها و رغباتها في الواقع الحالي. و يتوقف استقرار النظام كذلك على نوع الأهداف التي ترسمها كل دولة.

و أخيرا إن استقرار النظام أو اضطرابه يتأثر بالتقنيات التي تستخدمها الدول في تحقيق أهدافها. و يمكن أن تتلخص هذه التقنيات في ثلاث هي: الدبلوماسية و التفاوض، الاستعداد العسكري و التحولات الاقتصادية⁽¹²⁾.

أما فيما يتعلق بالنظام الدولي الحالي (الذي كان سائدا وقت تأليف الكتاب) يرى "روزكرينس" أنه في عملية تغير من نظام القطبية الثنائية إلى نظام القطبية الثلاثية وربما نظام القطبية المتعددة وأن الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي (سابقا) والصين

واليابان وأوروبا هم الفاعلون الذين بإمكانهم طبع النظام الدولي للسنوات القادمة (زمن تأليف الكتاب). وإذا ما ظهر عالم خماسي القوى ، كما يضيف الكاتب فنقترب حينئذ من نظام توازن القوى للقرن الثامن عشر و لكن بفارق حيوي هو أن التوازن النووي يمكن أن يكون صعب التحقيق بعكس توازن القوى التقليدي. لذلك تتطلب هذه الوضعية مناهج جديدة لجعل النظام الدولي المستقبلي مستقر⁽¹³⁾.

و قد قام الكاتب ببناء نموذجين افتراضيين للنظم الدولية المستقبلية: الأول نموذج ذا حدود استراتيجية نووي متعدد القطبية ذا قدرة نووية بين أيدي عدد كبير من الدول ، و تسيطر في هذا النموذج الاعتبارات الاستراتيجية و العسكرية و الدول فيه تعتدي بعضها البعض في حالة فشل شروط الردع.

أما سمات النموذج الثاني الممكن فهي ارتفاع مستوى التعاون و اعتماد متبادل في المجال الاقتصادي تؤثر فيه التجارة الخارجية و الاستثمارات إلى درجة أن الفاعلين الدوليين الرئيسيين في النظام هم مجبرون اقتصاديا على تجنب السياسات الفوضوية و هو نموذج مستقر⁽¹⁴⁾.

و يعتقد الكاتب أنه لا يسود في المستقبل أي من هذين النموذجين بمفرده فهو يقول: سيكون النظام الدولي مزيج من عوامل اقتصادية و عسكرية، فهو مركب من القومية و العالمية فيه تهديد بالعقاب و استخدام القوة، و فيه كذلك في نفس الوقت ترغيب بالمكافئة و الثواب⁽¹⁵⁾.

الخاتمة :

نستنتج مما تقدم أن إسهام "روزكرينس" يبتعد عن مساهمة "كابلان" في العديد من المظاهر، فإضافة إلى الاختلافات التي ذكرت أعلاه فإن أهداف "روزكرينس" هي أكثر تواضعا من وجهة نظر النظرية، كما أن طروحاته هي نسبية مقارنة بطروحات "كابلان".

الهوامش:

1. Moya Carlos : « Talcott Parsons y la teoria sociologica Actual »
in sociologos y sociologia, Siglo XX editores
,Madrid,1970,p.173
2. Morton, A.Kaplan : systeme and process in international politics, New york,1957,in stanley,Hoffman : teoria contemporareas sobre las relaciones internacionales, Trad de M.D Lopez Martinez, Madrid,1963.... Op.Cit p148.
3. Ibidem, pp. 141-142.
4. Ibidem, P.153..
5. جيمس دورتي، و روبرت بالتسغراف: النظريات المتضاربة في العلاقات الدولية ترجمة وليد عبد الحي ، كاظمة للنشر ، الكويت، 1995، ص ص 125-133.
6. Morton A.Kaplan : « Constitutional structures and process in the international Arena ».in_Arenal, Celestino Del : Introduccion a las relaciones internacionales, 3 ed, Tecnos, Madrid,pp.264-265.
7. Rosecrance,, Richard.N :Action and reaction in world politics, Allyn and Bacon, Inc, Boston, 1963.
8. Ibidem, pp .280-296.
9. Ibidem, P .304.
10. Rosecrance, Richard N :International relations, peace or war ? The Free Press, New york, 1973.
13. Ibidem, P .282.
14. Ibidem, P P.283-293.
15. Ibidem, P .293.

11. Ibidem, PP. 64-65.
12. Ibidem, P .70.